دلالةُ الأصواتِ غيرِ اللّفظية في القرآن الكريم

يوسف ولد النبية
المركز الجامعي معسكر

تمهيد:

عندما يتلو المسلم كتابَ ربّه، يسمع فيما يسمع، أصداء الأصوات تنبعث من ثنايا الآيات؛ منها ما مصدره الإنسان، ومنها ما مصدره غير الإنسان، سواء أكانت في عالم الشهادة أم في عالم الغيب.

ومن هذا المنطلق، آثرنا أن تكون هذه الدراسة حول الأصوات غير اللّفظية في القرآن الكريم. وقبل الخوض في هذا الموضوع، علينا أن نعرف مفهوم الصوت، وكيفية حدوثه، والفرق بين ما هو لفظي وما هو غير لفظي.

فالأصوات من الناحية الفيزيائية أمواج تحتوي على تضاغط وتخلخل. ويحدث الصوت بعد وصول الأمواج الصوتية عبر الهواء إلى الأذن،عندها يلتقطها الصيوان ويوصلها بواسطة القناة السمعية الخارجية إلى الغشاء الطبلة فيتأثر بها ويحدث اهتزازا.تنتقل الإهتزازات بواسطة العظيمات الموجودة في الأذن الوسطى إلى الأذن الداخلية . تؤثر الإهتزازات في السوائل المسماة باللمف ؛ فتحدث تموجات تستقبلها أطراف العصب السمعي، الذي ينقلها بدوره إلى الدماغ ، حيث يدرك السامع مغزى الصوت،ويفهم معناه.[1]

والصوت المسموع يتحدد معناه عبر مفصلين:الأول بالإصطلاح المتعارف عليه في المجتمع اللغوي؛ وهو الذي ينشأ من ائتلاف الحروف، لتؤدي معان صحيحة،يحسن الوقوف عليها. والثاني طبعي من خلال ما يثيره في السامع من مشاعر، ويترك في نفسه من انفعالات وآثار. كأسماء الأصوات والضحك والبكاء.[2]

ولقد قسّم جرجي زيدان الأصوات الطبيعية إلى أصوات حية وأصوات غير حية ؛ فأما الأصوات الحيّة فتُقسّم إلى أصوات الإنسان، وأصوات الحيوان، فأصواتُ الإنسان منها ماهو اضطراري، وهو إمّا لا تتميز فيه المقاطع كالأنين والعنين، وإما تتميز فيه المقاطع كآه للتعجب وأوّه للتوجع، ومنها ما هو اختياري كالصفير والنحنحة. بينما أصوات الحيوان فهي الأصوات التي يعرف بها كل حيوان، كصهيل الفرس. وأما الأصوات غير الحية فتحدث إما بتفاعل القوى الطبيعية، كدوي الريح ، أوتحدث بتصادم الأجسام الجامدة، كطقطقة الحجارة.3

وعلى ذلك فالأصوات غير اللفظية هي أصوات طبيعية ، تحمل إلى المتلقي رسالة ما، دون أن تحكمها قوانين وأحكام، بخلاف الأصوات اللفظية؛ التي تشتمل على حروف، وهذه الحروف تحكمها مخارج، وتميّزها صفات، هذا فضلا عن كون الأصوات اللفظية قسيمةَ الصرف والتركيب والدلالة في الكلام البشري.

ولم تأخذ الأصوات غير اللفظية حظها من الدراسة ـ داخل النصوص ـ كما أخذته الأصوات اللفظية، على الرغم مما تكتسيه من أهمية في التواصل من ناحية، وفي تشكيل الخطاب من ناحية أخرى. ومع ذلك فقد تناولها بعض القدماء بشكل عام وعرَضي، منهم الجاحظ (255هـ)الذي تحدّث عن تأثير الأصوات في غيرها فقال:(وأمر الصوت عجيب، وتصرفه في الوجود عجب، فمن ذلك أن منه ما يقتل، كصوت الصاعقة.ومنها ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص، وحتى ربما رمى الرجل نفسه من حالِق [مكان مرتفع] وذلك مثل هذه الأغاني المطربة. ومن ذلك ما يكمد. ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه، كنحو هذه القراءات الشجية، والقراءات الملحَنة... وبالأصوات ينوِّمون الصبيان والأطفال).4

وبعد الجاحظ عقَد ابن قتيبة(276هـ) في أدب الكاتب بابا مختصرا سماه " فروق في الأصوات" تحدّث فيه عن بعض أصوات الإنسان والحيوان.5 وعلى هذا النهج سارت كتب فقه اللغة القديمة.

ومن المُحدَثين من اهتمّ بدراسة الأصوات غير اللفظية ودورها في التعبير والتواصل؛ من حيث كونُها مصاحبةً للّغة المنطوقة ومدعمةً لها،(كنغمة الصوت،وسرعة الكلام، والتنوّعات الملحوظة في مقام الصوت، وسرعة الآداء، والإيقاع، وتحقيق النطق بالصوت، وشدته.وترتبط تلك الخصائص المختلفة، باختلاف الوظائف في الأحداث الإتصالية.ويمكننا أن نتبيّن ذلك فيما يقدمه سالزمان من أمثلة: فالتحقيق أو التلفّظ عالي الضبط ينتج الإنعاش.ونتوقع مع التلفّظ المحكم أو المدقق تلفظات شكلية موجهة إلى جماعات واسعة من المستمعين.وعلى النقيض من هذا،فإنّ الكلام المنطوق في هدوء إلى حد الخفاء، يُسمع من أولئك المتعبين جدا)6. هذا و دون أن ننسى إشارات بعض القدماء، كابن جني في الخصائص، إلى أثر النبر والتنغيم في الكلام.

وبالإضافة إلى مصاحبات اللغة المنطوقة المذكورة(التي تُكسب الصوت اللغوي الصفة التي تؤهله لأداء وظيفته الإتصالية المناسبة،فإنّ هناك علامات صوتية أخرى تتخلل كلامنا.وتنتظم هذه العلامات الصوتية أنماطا مختلفة؛ كالضحك والصياح والهمس والصراخ والتأوّب والنحيب . ولتلك العلامات ـ في تخللها كلامنا ـ دلالات مختلفة. ويمكن أن تُعدّ مؤشرات على درجة التفاعل مع الحدث الإتصالي).7

وعلى ذلك تقرّر عند بعض الباحثين أنّ التواصل ونقل الأفكار لايتمّان باللغة البشرية(اللفظية) فحسب، وإنما تؤكد الملاحظة والتجربة أنّ التواصل بالأصوات غير اللّغوية ممكن، ولا يقل أهمية عن الرموز اللغوية. فمن الأصوات ما يحمل دلالات شأن الألفاظ... فالسامع للصرخة يفهم مقصدها، كما يفهم السامع للفظة نظيرا بنظير.8

ومن طرائف الأصوات الإنسانية أنّ كثيرا منها ممّا لا يُعدّ أصواتا كلامية في بعض اللغات، يُعد أصواتا كلامية في بعضها الآخر(وعلى سبيل المثال فإن الصوت الذي نحدثه حينما نريد إطفاء عود كبريت،أو صوت التقبيل،أو صوت استدعاء فرس أو

نحوها كل أولئك يشكل جزءا من معدات الأصوات الكلامية في لغات مثل اليابانية أوالهوتنتيه "hottentot" في جنوب إفريقيا).9

وبناء على ماتقدّم جاز لنا أن نتساءل: ماطبيعة الأصوات في القرآن الكريم؟ وما الدلالات التي تحملها؟ وهل يمكن أن نعتبر بعضها وسيلة اتصالية ؟

يمكننا في هذه العُجالة تقسيم الأصوات غير اللفظية في القرآن الكريم إلى قسمين: أولهما الأصوات في عالم الشهادة، وثانيهما الأصوات في عالم الغيب.

1- **الأصوات في عالم الشهادة** : ونقصد بعالم الشهادة الحياة الدنيا، أو ما وقع تحت الحس،وأدركته الحواس والعقول. وإن كانت حاسة السمع هي التي تعنينا في هذا المقام. وقد تراءى لنا أن نفرّع هذا القسم إلى ثلاثة فروع:

أ- **أصوات الطبيعة:**

وسنكتفي منها بثلاثة أنواع :

1- صوت الرعد: يقترن صوت الرعد في القرآن الكريم بالتسبيح ، قال تعالى ﴿**ويسبّحُ الرعدُ بحمده والملائكةُ من خيفته**﴾ (الرعد/13) ، والرعد صوت السحاب، إذا سمعه الإنسان فـزع وخاف، ولقد كان عبد الله بن الزبير(ض) إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال"سبحان الذي يُسبّحُ الرّعدُ بحمده والملائكةُ من خيفته".[10] و"تسبيح الرعد حقيقة دلّ عليها القرآن فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لايخبر إلا بما هو حق".[11]

2- صوت الريح: من بلاغة القرآن الكريم أنه يذكر لفظة الرياح في سياق الرحمة، من ذلك قوله:﴿**وهو الذي أرسل الرياحَ نُشُرًا بين يَدَي رَحمتِه...**﴾ (الفرقان/48) ، ويذكر لفظة الريح في سياق العذاب، من ذلك قوله: ﴿**أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسلَ عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم..**﴾ (الإسراء/69). على أنّ ما يعنينا في هذا المقام هو الصوت الذي يصحبه الريح ، ومن أمثلة ذلك ما سماه القرآن بالريح

الصرصر، وهو الريح الذي عذب به الله تعالى عادا قوم هود، قال تعالى: ﴿**وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صَرصرٍ عاتية**﴾ (الحاقة/6)، أي "أهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدبور، وفي الحديث: "نُصرتُ بالصبا، وأُهلكت عادٌ بالدبور".12

3- صوت الصيحة: لقد دمّر الله تعالى ثمُودَ ـ قومَ صالح ـ بالصيحة المدمرة، قال تعالى: ﴿**وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين**﴾ (هود/67). قال قتادة "هي الصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة".13 وقد عبر القرآن الكريم عن هذا النوع من العذاب بألفاظ مغايرة في سياقات أخرى، كلفظة الصاعقة (الذاريات/44)، ولفظة الطاغية (الحاقة/5).

ب- أصوات الإنسان:

1- صوت اسم الفعل: اسم الفعل كلمة تدل على ما يدل عليه الفعل،غير أنها لا تقبل علامته. وهو إما يكون بمعنى الماضي مثل هيهات(بَعُد)، أو المضارع مثل أفّ(أتضجر)أو الأمر مثل آمين (استجب).14 وما يهمنا من أسماء الأفعال الصوت الطبيعي الذي يحمله بعضها، وهذا النوع من أسماء الأفعال لا يحتاج إلى أن يُتعلّم، مثل أوّه(أتوجع). ومن أسماء الأفعال الطبيعية الواردة في القرآن الكريم(أفّ) في قوله تعالى﴿إما يبلغنّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما، وقل لّهما قولا كريما) (الإسراء/23). فاسم الفعل(أفّ) هو أقل صوت يُظهر الضجر، لذلك نهى القرآن أن يُظهر الولد هذا الصوت بحضرة والديه. على أن هذا الصوت نفسه يحمل في سياق آخر دلالة مغايرة ، تتمثل في استشناع إبراهيم عليه السلام ما عبده قومه من دون الله، قال تعالى على لسان إبراهيم:﴿أفّ لكم ولِمَا تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ (الأنبياء/67).

2- صوت الضحك: يدل الضحك في غالب الأحوال على السرور والحبور، ويدل في أحوال أخرى على السخرية والتعجب.. والضحك ﴾ فعلٌ تحكيه أصوات تتباين تبعا للمعنى الذي تؤدي، ويعكسه الإيقاع والنبرة".15 وممن صدر عنه الضحك في

القرآن الكريم امرأة إبراهيم سارة، قال تعالى ﴿**وامرأته قائمةٌ فضحِكَتْ، فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاقَ يعقوب**﴾ (هود/71). على أنّ دلالة الضحك في هذه الآية تختلف باختلاف التفاسير؛ فالضّحك كان "إمّا استبشارا بهلاك قوم لوط،أو تعجّبت كيف تلد وهي عجوز،أو حاضت في الوقت ليكون ذلك علامة على ما بشرت به". 16 وممن صدر عنه الضحك أيضا سليمان عليه السلام، عندما سمع ما قالته النملة، قال تعالى: (**فتبسّمَ ضاحكا من قولها...**)(النمل/19).

3- صوت البكاء: البكاء صوت يصدر عن الإنسان في أحوال مختلفة؛ منها الفاجعة، والخوف وخشية الله.. ومعرفة دلالاته راجعة إلى السياق. ومن الآيات التي ذكر فيها البكاء، ما جاء في قوله تعالى عن أنبيائه ﴿**إذا تتلى عليهم آياتُ الرحمن خرّوا سُجّدا وبُكيا**﴾ (مريم/58) . فبكاء النبيين صدر مقترنا بالسجود، مفعما بالخشية والانكسار، مع ما للأنبياء من زُلفى من الله وحسن مآب. على أننا نجد البكاء عند إخوة يوسف مصطنعا، القصد منه إيهام الأب بأن يوسف قد أكله الذئب، ﴿**وجاءوا أباهم عشاءً يبكون**﴾ (يوسف/16).ولما كان هذا البكاء مكذوبا رد الأب عليهم عقب ذلك: ﴿**قال بل سوّلتْ لكم أنفُسُكم أمرا، فصبرٌ جميلٌ، والله المستعانُ على ما تصفون**﴾.

ج- أصوات الحيوان:

1- صوت الحمير(الصوت المُنكَر): ذكر القرآن الكريم صوت الحمير في سياق نهي الإنسان عن رفع صوته عاليا، وهذا النهي هو إحدى وصايا لقمان لابنه، قال تعالى:﴿ **واغضُضْ من صوتك، إن أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير**﴾(لقمان/19). قال الحسن: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فردّ عليهم بأنه لو كان خيرا لفضلتهم به الحمير، وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.17

2- صوت العجل المصنوع من الحُلي: قال تعالى في شأن هذا العجل﴿**واتّخذ قومُ موسى من بعده من حُليِّهم عِجلا جسدا له خوار**﴾(الأعراف/148). فالخوار هو صوت

كصوت البقر كما ذكر ابن كثير، كان يحدث بفعل الريح التي كانت تدخل من دبر العجل وتخرج من فمه، فيرقص حوله بنو اسرائيل ويفرحون.18 فالصوت هنا اصطناعي يحمل دلالة الإيهام و التلبيس من السّامِريّ على بني إسرائيل.

د- الأصوات في عالم الغيب: ونقصد به الحياة الآخرة، أو ما لم يقع تحت الحس، وغاب عن الحواس والعقول، وإن كنا نصدق به غيبا:

أ- صوت الناقور: ذكر هذا الصوت في قوله تعالى: ﴿**فإذا نُقر في الناقور فذلك يومئذ يومٌ عسير**﴾ (المدثر/8-9) ، أي " فإذا نفخ في الصور نفخة البعث والنشور، وعبر عن النفخ وعن الصور، بالنقر في الناقور، لبيان هول الأمر وشدته، فإن النقر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت كان مفزعا".19 وفي سياق آخر(الزمر/68) استعمل القرآن عبارة النفخ في الصور، وهو قرن ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله تعالى؛ النفخة الأولى للفزع، والثانية للصّعِق، والثالثة للإحياء كما قال العلماء.

ب- صوت الإنسان: تنوع ذكر صوت الإنسان في يوم المحشر والجزاء ، بتنوع المواقف و الأحوال، بين همس واستغاثة واصطراخ.. فعن الهمس قال تعالى:(وخشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمعُ إلا هَمْسا) (طه/108)،أي "لا تسمع إلا صوتا خفيا لا يكاد يُسمع، وعن ابن عباس: هو همس الأقدام في مشيها نحو المحشر".20 فلفظة"همسا" توحي بخفوت أصوات الخلائق ـ التي كانت تتعالى في الحياة الدنيا ـ هيبة من الرحمن.وعن الإصطراخ قال تعالى:﴿**وهم يصطرخون فيها ربّنا أخرجنا نعمل صالحا غيرَ الذين كنّا نعمل...**﴾(فاطر/37) فهم يصيحون بصوت عال، ويصرخون صرخة المستغيث.

ج- صوت جهنم: ذكر القرآن الكريم الصوت الذي تحدثه جهنم، بألفاظ مختلفة، تصور كلها هول الموقف، من ذلك لفظتا الغيظ والزفير، قال تعالى عن جهنّم: ﴿**إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا**﴾ (الفرقان/12)، أي"سمعوا صوت لهيبها و غليانها الغضبان...وسمعوا لها صوتا كصوت الحمار و هو الزفير".[21] وعبّر القرآن عن صوتها في موضع آخر بالشهيق وهي تفور،﴿**إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور**﴾ (الملك/7).

ونصل ـ مما تقدّم ـ إلى أنّ الأصوات غير اللفظية أو غير الكلامية هي أصوات طبيعية، تصدر عن الإنسان كما تصدر عن غيره. ألتها حاسة السمع، تثير في النفس ما تثيره الأصوات اللفظية أو أكثر، استمالةً أو تنفيرا، منها ما يصدر طبيعة، ومنها ما يحدث تكلّفا. وتُعد الأصوات غير اللّفظية ـ التي تتخلل كلامنا في عملية التواصل ـ علامات شبه لسانية تحمل إلى المتلقي دلالات مختلفة باختلاف المقاصد والموقف.

وعليه، فإن الأصوات غير اللفظية بحاجة إلى بحث أعمق، واستقصاء أدق، سواء في القرآن العظيم أم في غيره.

الهوامش

1-محمد كشاش:اللغة والحواس- المكتبة العصرية- بيروت- ط1-2001- ص41
2-المرجع نفسه: ص142
3-جرجي زيدان:الفلسفة اللغوية- دار الهلال-1969- ص138-140
4-الجاحظ: الحيوان- دار الكتاب- بيروت- ط3-1969ج4- ص191-192
5-ابن قتيبة:أدب الكاتب- دار الطلائع- القاهرة- ص106-107
6-محمد العبد:العبارة والإشارة-دراسة في نظرية الإتصال-مكتبة الآداب-القاهرة-ط1-2007- ص27،وانظر:الدلالة الصوتية، لزكي حسام الدين. واللغة والحواس، لمحمد كشاش
7- محمد العبد:العبارة والإشارة-29
8-محمد كشاش: اللغة والحواس-155
9-ماريو باي: أسس علم اللغة- ت:أحمد مختار عمر-منشورات جامعة طرابلس-ليبيا-1973-ص45-46
10-مالك بن أنس:الموطأ-2/ 992
11-محمد علي الصابوني:صفوة التفاسير- دار الكتب- بيروت- ط1-1999ج2ص534
12-المرجع نفسه:ج3ص1292
13-المرجع نفسه:ج3ص1292
14-مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربية-المكتبة العصرية- بيروت-2003ص116
15-محمد كشاش:اللغة والحواس- ص145
16-محمد حسن الحمصي: تفسير وبيان- دار الهدى- عين مليلة- الجزائر- ص229
17-محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير- ج2ص871
18-ابن كثير: قصص الأنبياء- دار ابن الهيثم- القاهرة - ص431
19-محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير- ج3ص1326
20-المرجع نفسه:ج2ص671
21-المرجع نفسه:ج2ص760